حوار مع الحياة

ذات مساء قبيل الغروب، وأنا أتمشى على شاطئ البحر، أرقب تلك الكرة النارية تسرع الانزلاق نحو الأفق، فبدا لي ان لهيب الشوق الى العودة يزيد من حرارتها، فتتحول من صفراء الى حمراء قرمزية... اللهيب يستعرّ كلما اقتربت الشمس من موعد الرحيل، فتنسلّ رويداً الى البحر لتطفئ قيظها ببرودة مياهه... لونها القرمزي يأخذ بالتلاشي، وتصطبغ الدنيا بلون البرودة - لون الزرقة الأرجوانية. وأستشعر ان ثمة كلام ينبثق من مكان ما. أنصت... فأسمع حوار الحياة مع كائن اخر، ربما مع أحد أبنائها الفلاسفة المخضرمين:

الحياة - أنظر الى أبنائي في الإنسانية. كلهم أبناء الحياة الواحدة والمساواة ميزتهم.

الفيلسوف - لكني أرى الواحد يختلف عن الاخر. فاين المساواة التي تتحدثين عنها؟

- الحياة - ليس من اختلاف بين ابنائي. فالزهور في الحقول والرياض كثيرة. كل زهرة تختلف عن الأخرى بلونها وشذاها، لكنها كلها زهور، تستقي وتتغذى من الطبيعة، تنبت وتنمو وتعطر الاجواء وتزيّن الارض. والرياض لا ترتدي حلة جمالها الا باختلاف ألوان الزهور وأريجها.

تصوّر روضة لا تحوي سوى نوع واحد من الزهور. ألا ترى بأن جمالها يصبح عادياً، مملاً، باهتاً، فلا يدعى جمالاً بل هو أقرب الى الرتابة؟

الفيلسوف - لكن ثمة انسان غني وآخر فقير. واحد مثقف وآخر جاهل. شخص واعٍ وآخر لا واعٍ. فهل هكذا تكون المساواة؟

الحياة - لستُ انا من يميّز زهرة عن أخرى. ولستُ أنا من يقرّر للزهرة لونها أو عطرها، بل هي التي تختار. أنا أقدّم لها التربة وعناصر الحياة (المياه والهواء ونور الشمس) ولها ان تختار من عناصر الحياة ما يناسبها، وما تستسيغه من ألوان وأريج.

العناصر الطبيعية واحدة في شتى البقاع، لكن الزهور هي التي تختار ثوبها التي يروق لها. فحرية الاختيار حق مقدّس، وهب لي، ولا أستطيع إلا أن أهبه لمخلوقاتي. فهو الحق والحقيقة، بل هو استمرارية وجودي.

الفيلسوف - وما قولك بإنسان يولد ليموت. وآخر يموت ليولد؟ أليس الموت أسراً لحرية الاختيار؟

الحياة - وهل ثمة من يرفض التجدد المستمر؟ هل هناك من يختار الجمود بدلاً من التطور؟ درب التطور يمرّ ببوابة التجدد - الموت.

الزهور اختارت الحياة، إختارت أن تكون زهوراً، إختارت أن تنبت وتنمو وتعطر الاجواء، وتلوّن الطبيعة، اختارت أن تتجدد وأن تتطور وأن تستمر الى الأبد. هي، بملء ارادتها اختارت الخلود. فهل لي أن أرفض أو أنكر اختيارها هذا؟ حرية الاختيار تقدّس بها كل موجود، ولا بد من احترام حرية الاختيار.

أنت تسمي ذلك الشيء موتاً. أما أنا فأدعوه «التجدد». ومن يختار التجدد الأبدي فالخلود مصيره.

الفيلسوف - وأنت من أنت؟

الحياة - أنا الحياة. أنا النسمة الأولى التي زفرها خالق الأكوان في البدء، وقدّمها لكل من اختار ان يكون. وها أنا، منذ البدء، وسابقى حتى النهاية... أقدّم من تلك النسمة الى كل من سيختار ان يكون.

الفيلسوف - وأنا... من أنا؟

الحياة - أنتَ... أنتَ ذلك الفكر المتسائل في كل كائن، في كل من يختار أن يكون... لكن لا تدع إرادتك تردعه عن اختياره. لأن حرية الاختيار دائماً هي الأقوى. حرية الاختيار ستبتلعك وتحويك، كما ابتلعتك انا واحتويتك حين اخترتُ أن أكون الحياة!!

صمتت الحياة، وصمت الفيلسوف... صمت الحوار بعد أن كانت الشمس قد لملمت آخر وجود لها من ذلك المكان.

د. رانيا فرح

جريدة الديار - السبت ٧ كانون الأول ٢٠٠٨